التحدي ...

قصة بقلم ع. مطيع

في لحظة سأم عاتية بمنفاه القصي بالجنوب ، كتب مجيباعلى خطابها الذي ذكرته فيه بآخر لقاء ، تبادلا أثناءه الحوار التالي :

« قال : فيم تفكرين؟

قالت : في الفراغ الذي يملأ الكون .

قال : انك تفهمين .

ـ وما ادراك ؟

ـ عيناك اللتان تبحثان داخل الفراغ .

ـ ان عيني جامدتان .

ـ لم ار عينيك .

ـ وماذا رأيت ؟

ـ فكرك ... انك ذكية .

ـ والذكاء يعذبني .

ـ كم اكره ان تكوني ذكية !

ـ سوف اتبلد .

ـ سأثني عليك وأعزك .. » .

وختمته بقولها « اني ابذل كل جهدي لالحق بك، أو تلحق بي ، ولقد أوشكت أن أنجح فهل يسعدك أن آتي اليك ؟ وقبل هذا ، اذا أردت أن تراني فانظر الى يسارك تجدني قابعة .. »

الجنوب ... في ٣٠ سبتمبر ١٩٦٣

« عزيزتي

« أكتب اليك ، لا ردا على خطابك فقط ، وانما لالبي رغبة مكبوتة في نفسي ، وحنينا دفينا من زمان ، الى ان اكتب اليك شيئا ، أي شيء ، والكلمات مهما كانت تافهة ان وجهت لانسان أرهف أحاسيسه الالم ، وعمقها الصفاء والاشراق ، لا بد أن تثير في النفس حسرة حائرة او دمعة حرى او على الاقل اشفاقا من عبثنا الذي نمارسه بكامل الجد والموضوعية .

لقد كتبت لك من قبل رسالتين ، ومزقتهما ، لما بهما من قتامة موحشة وسوداويةعارمة، ومحاولة مني لترويض نفسي على نسيانك ، كي اتركك تعيشين الحياة الجديدة، آمنة مطمئنة فلا نبقى في نظر بعضنا شبحا لماض سعيد نحنّ اليه ، فينغص حياتنا ، ويؤرجحها في فراغ مسؤوم. ولكني الان اذ استسلم امام نفسي ، واخضع لرواسب الانهزامية في قلبي ، وأومن بأن ما بيننا أقوى من ان تؤثر فيهالصدف ، وأرسخ من انتجتثه محاولات التملص واللامبالاة ، أعود فأصل ما كان قد اشرف على الانقطاع.

رفيقتي ، حاولت ان تضفي على رسالتك بعضا من مرح ، ولكنك لم توفقي ، فمرحك اشبه بغلالة شفافة على جسم اسود ، لانه مرح تطغى عليه افكار قاتمة ، صادرةعن نفس معذبة .

ومثلك انا ، كان في نيتي أن انطلق في كتابتي، ولكني لم افلح حتى في اضفاء الغلالة الشفافة ! اتدرين لماذا ؟... لاني اواجهك بروحي ، والروح عند مثلي ومثلك جبارة عنيدة متحررة ، لا تعرف التستر والمواربة ، وهذا سر شقائنا .

ورغبت الى ان التفت الى يساري لاراك ، لكن لماذا التفت ؟! ما دمت اشعر بك في اعماق يساري ... في كل ذرة من ذراته وروحك ما تزال مرسومة فيه من يوم بدأ يشعر بالارواح ، ولكنه لم يجبك ـ برغم اسئلتك المتوالية ـ خضوعا منه لما كنا قد فرضنا على انفسنا من قيود وهمية سميناها تقاليد واعرافا ، كثيرا من أرجحتنا في دوامات مغثية سخيفة ، لقد كان يساري اذ ذاك أبكم ، أبكمته بعد جهاد عنيف ، فلم يجبك ، وانما اجابك لساني ... وبعض ملامح وجهي التي تعودت ان تخفي شعوري بالالم، وتظهرني ضحوكا بشوشا كأسعد ما اكون.. اتدرين انك حطمت جهادي العنيف الذي مارسته طويلا لكبت هذا اليسار .. وابكامه ؟!

انني اغبطك ، رغم غرقنا المشترك ، لانك ما زلت تسترجعين الماضي بكثير من النشوة والانشراح ، وترين فيه ما كنا نراه من الجمال .. لا زلت تذكرين لياليناالتي رتع القمر في احضانها ورددت الازهار آمالنا الغضة في رباها . لا زلت تذكرين صخور الشاطىء ورماله، وامواجه التي شهدت شبحين هامت روحاهما في الفضاء فطفقا يرقبان ظليهما يقتربان ، ويبتعدان ... تحت اشعة القمر الكاشفة ، فلم يستطع احدهما منع الدموع من الانبجاس ... اما الاخر فقد كان يئن تحت وطأة الصراع المحتدم في اعماقه .

لقد اجدت التعبير عن حوارنا في تلك الليلة، وحملت الصمت الذي خيم علينا كل ما عنينا بصمتنا وكلامنا ، اما العصفورة التي كانت تغني فقد اهملت شيئا مهما، ربما أهملته عمدا لكي تبعدنا عن مرارة واقعنا، وربما ستذكره في تتمة غنائها باساوب يسلينا عن هذا الواقع.

اعتقد انك ذكرت الان ذلك الحيوان المزعج الذي ودعنا ، واشعرنا بسخف المصير وان كنت أربأ بصوتها عن ان ينطق باسم هذا الحيوان السخيف !

وكنت في آخر لقاء قارئة كف بارعة ، اذ تنبأت بأن لي املا ، وطريقي اليه طويل . لم اتبين هذا الامل اذ ذاك، ولم تسأليني عنه ، ومع ذلك ، فقد تألمت ثم سألت نفسي بعد ... فاحتد شعوري بالالم ، والعجز ، والاشفاق. ذلك لاني اريد الخلاص من هذا العبث المستمر ، وهذا الوجود المفروض . هل فهمت الان لماذا انا مضطرب .. فوضوي .. لا أركز في شيء ؟!

ان الانسان في صراع دائم مع لاسببية وجوده ، ولن يهدأ الا اذا جعل على باصرته حجابا يقيه اكتشاف العبث، او قابل وجوده بضرب من اللامبالاة ... جربت الفرار من الالم باللامبالاة والاهمال فلم افلح ، الا في ان اكون قلقا، مضطربا ، فوضويا ، اما الحجاب فلم استطع استعماله لانه ضرب من السخرية بالنفس ، وانا اكره تقليد النعامة.

ولطالما رجوت أن تفتي المحكمة بعدم صلاحيتي للحياة، فأرتاح من محاولتي اللامجدية لايجاد منفذ من هـذا الوجود ، دونما اضطرار للفرار الى اللامبالاة العميـاء او النعامة المتبلدة ، ولكنها ارتأت حجزي في اطار يرغمني على اجترار واقعي كل لحظة ... ففي نظرها لا اصلح للحياة العادية ، ولا للموت العادي فانظـري كيـف ان القاضي كان في منتهى الذكاء ، عندما فكر في حكم شاذ لمتهم شاذ ، فجاء الحكم منسجما وطبيعة المتهم... حتى المنطقة التي نفيت اليها وجدتها اشد انسجاما معطبيعتي، فانا الان في جو قاري متقلب لا يعرف الاعتدال ، وأشعة الشمس فيه لا تكون الا ثلجية أو ملهبة ، وارضه لم تعرف الخضرة ولا الماء وكل ما فيه احجار سوداء لامعةمتراكمة هناك ... وهنا ... وقمم قاسيـة لا متناهـية، ومنخفضات ومغاور هائلة قائمة مدلهمة ، الا ان بهـذه الارض شيئين يخففان من وطأة الموت المخيم عليهـا، هما سماؤها الصافية الدائمة الزرقة والانجام، وغزلانها التي تبرز أحيانا لاهثة تائهة قلقة خفيفة الحركة، كثيرة الالتفات والتطلع كانها تبحث عن شيء قد يكون تحقيقا لآمالها المجنحةفي هذهالصحراء الجافة الجاذبة، او تنتظر شيئا قد يكون ــ رمية طائشة من صائد ابله ، ساعدته الصدفة على أنيقتل هدفه ليمتلكه جثة هامـدة يلتهم قديدها البارد الشديد الملوحة .

هذا اطاري ، وقد رأيت أنه منسجم أشد الانسجام مع حياتي اللافحة ، الملتهبة العاتية ، التي لم تعـرف الاعتدال أو الاستقرار ، حياتي القاتمة الجافة ، التي رعت فيها غزلان آمالي وامالك فلم تجد فيها الا قساوة كاسفة وفراغية هائلة رتيبة مقفرة .. شيئا واحدا ، رأيته في هذا الاطار ولم أجده في حياتي ، هو هذه السماء الصافية اللامتناهية الزرقاء .. اتدرين انه لم تكن لدي سماء ؟ وحتى اذا ما وجدت فلا تزيد على أن تكون غيمة مكفهرة او غبارا اثارته زوبعة حلزونية عاصفة وجمعتـه فوق رأسي ، ليتساقط عليه خيبة ومرارة ، وشعورا بالعبث ... ولعنة .

لعلك فكرت الان في أن هذا الاطار يوافقك اكثر مما هو منسجم معي ، سيما وقد عرفت في صحرائك سماء صافية منجمة تتشبثين بها ولا تبغين بها بديلا ...

أتمنى أن تمكثي متطلعة الى هذه السماء ، فهـي التعزية الوحيدة التي لك في هذه الحياة رغم أنها لا تمطر الا سرابا ، ولا تهب مثلك الا أجنحة مقصوصة يرتفع بها عن الارض برهة ليرتطم بصخورها الصلدة وجـدرها الجليدية . فهل يا ترى تستطيعين ان تبقي متطلعة اليها ايتها الملاك الصغير ، المقصوص الجناح ، المتشبث بايمانه القاتم ؟

لقد ذكرت ذات يوم ، أنك تعرفينني جيدا ، وانك صرت تشبهينني ..

خجلت ــ حينئذ ــ كثيرا ، ولم استطع ان انبهك الى فارق واحد ، هو انك لم تتخلي لحظة واحـدة عـن ايمانك بهذا الاله الطيب ..

دعوت هذا الأله بكل حرارة ، دعوته وانا في قمة الالم ، وفي عمق الازمات ، فلم اشعر الا بنوع من الاستسلام ــ والاستسلام كما تعلمين ، نوع من التخدير ، وانا لم اطلب مخدرا ، وانما سألته انتشالي من اغوار قـدره السحيقة .

أرأيت كيف ان الطيران خلف الايمان ، ومحاولـة تركيزه في انفسنا لا يجدي الا في ان يكسبنا ايمانا هشا أولى بنا أن نضعه في متاحف قلوبنا الآمنة ؟

كثيرا ما وقفت موقف الاختيار بين امرين او اكثر، واخترت الاقرب الى التقوى ففشلت . وقيـل لي ان الفشل اختبار الهي . ولكن هذا الفشل تكرر ، وجلبعلي نقما كثيرة ، فصرت اختار الابعد من التقوى ، ولكن دون جدوى . وقيل لي أطع نفسك واختر ، ففعلت ، فلم يكن الامر باحسن من السابق. وقيلاستخر ربك، فاستخرت، فكانت نتيجة الاستخارة مؤلمة، وانتظرتالالهاموالتوجيه فلم احصل عليهما .

لا تندهشي لمصير ايماني ، فانا لا زلت لم اجحـد وجود الله ، الا أنني اتساءل فقط ، عن فائدة وجـوده، ما دام كل الناس ينتزعون ما يشتهون ، من افواه بعضهم دون حاجة الى استجداء .. والذين ينتظرون ويعفون.. يجوعون ..!

ربما فكرت في انالايمان نافع على كلحال ، وان لم يحصل النفع عاجلا فقد يتحقق آجلا ، في الحيـاة الاخرى ، ولكن هذا التفكير سرعان ما يتبدد بمجرد ما اتذكر لعبة اليانصيب . واكتشف أن تفكيري هـذا يجعلني اقرب الى المقامرين لاعبي النرد...

أرأيت كيف ان الله رمانا في هذا المستنقع؟ ومكث يطل من عليائه ليرضي شعوره بالقـوة ، برؤيتنا نغوص في حمأة العذاب ، ويضحك من رؤية الطيبـين منا ــ الغرقى معنا ــ يمدون ايديهم لزملائهـم ظانين انهـم يستطيعون اسداء مساعدة ما .. كلانا غريق يا رفيقة ، فلا تموهي على نفسك بمحاولة انتشالي . ولا تجـربي مخدرا اخر ينسينا واقعنا الذي نجتره كل لحظة. ومع ذلك فانا أقدر فيك هذه التضحية المزدوجة. اذ لم تكتفي بالتنازل عن طلب المساعدة ، لكونك امرأة ، بـل عرضت هذه المساعدة علي ، وانا اقدر منك افتراضا .

لقد ذكرتني وأنت تعرضينها علي ، بالام التيتطبخ الحجر ، لتنيم أطفالها الجياع ، ولم يدر بخلدها أن عمر قد مات ، وأن الحجر لا يلقم الا امثالنا ، وقد شبعنـا حجرا ، لاننا لم ننم.

جربت أن أستعين بك ــ رغم ايماني بلا جدوى ما تعرضين ــ فحاولت التزود بقبس فـكرك ، ووميـض عاطفتك ، وصفاء اعتقادك لمجابهة العنف المأساوي الذي أحياه، والضياع الذي أعيشه كل لحظة ، والتمزق الذي يسحقني باصرار واستمرار ، والعفاء الذي يزحفنحوي ببطء سخيف مضن ، ورتابة بلهاء مغترة ، يحاول التستر بصخب الحياة ، وحربائية الملهاة ، واغترار السذج البله، عراض الامال والتسآل ، ولكني لم أفلـح ، فطرحت ميتافزيقيتك المجنحة جانبا ، وان كنت أكن لها كلاحترام .. لاجلك . ولست وحدي في هذا الموقـف ، فالكل ساخط ... يترقب ظهور الاله ، وقد رأيت في التاريخ الطويل كم ذاق ممثلوه من عذاب انتقاما لما انتاب البشر من ويلات وظلم ، فقد صلب مسيحه ، وكسرت رباعية حبيبه ، وطورد كليمه ، فكيف سيكون الحال، اذا مـا ظهر الاله نفسه ؟ لا أطيق الاجابة ، وما يتراءى لي، أن الكل مستعد للمطالبة بالتوضيح ، والانقاذ ، والقيـام بالواجب ، من طرف الاب الاكبر .

وكأني بالمنافقين والاعوان وباعة الضمائر ، ومرتزقة الوظيف ، والخونة طمعا أو يأسا أو جبنا ، سيكونون اول الثائرين على وضعيتهم المطالبين بتعويـض المسخ الذي

اصابهم نتيجة اضطرارهم لمجاراة الظروف ، اما المحايدون فيلحون ــ مهددين ــ في المطالبة بالمائدة السماوية ــ ان اراد ان يبقى الها .

أما بالمحاجز ومخافر الشرطة ، فسيجد طائفة من عباده الصالحين المحافظين على تعاليمه ، ولكنهم لا يرجون منه الا أن يعود الى سمائه ليبعثوا اليه بصلواتهم مجردة من كل ادعـــاء او طلب او احترام ــ واخرى من الطلبة لا يرجون منه الا ان يتركهم في حلبات الرقص بين قضبان السجون ــ وطائفة ثالثة من أمثالي تنظر اليه وتواصل صمتها .. واجترارها .. كأنها لم تر شيئا ...

فكيف بعد ، لا زال من يدعي صلاحية تمثيل الاله، ولا يخشى عاقبة ما سيحل به من طرف جماعة السخط التي لم نعد تحترم سوى وجودها . اذا ما استطاعت أن تؤمن به ؟!

ومتى ينتهي عهد توارث الصلاحـــية عن طـريق الانتخاب الالهي ؟ ونكف عن الشعور بأننا جارية موروثة ربما اقتسمها الاخوة ، فأخذ الذكر مثل حظ الانثيين ــ بالمفهوم التشريحي الصرف ــ أو زوجـــة روح شرير لشخص مات من قرون ، وبقي يتشخص ظلاما ، ثم عزم اخيرا على محاولة بناء جدار مسقوف يحجب ضـــوء الشمس كي يبقى في ليل مستمر ييسر له الظهور ؟

أرى ان انسانيتنا ــ كصفة مبدئية ــ توجب تكسير النطاطير المعقوفة والقضاء على عهـد توارث الصلاحية وازاحة السجف والستر ، كي تخسأ الارواح الشريـرة ، ويرتفع الظلام . والا ، فالسجن خير مثوى ، وأجـــدى مستقر اذ الحياة فيه تعلم اشياء كثيرة لا يستطيع المرء التوصل اليها خارجه .

لقد توهمت وأنا رهن الاستنطاق بين جلادي الغلاظ، أن العذاب الجسماني سينسيني نفسي ، ويخفي عني خباياها وأعماقها ومغاورها ، ويشغلني عن تركيز نظراتي الثاقبة في ذاتي النفورة المتمردة ووجودي الوهمي كما تعودت ، وأنا رهن الصمت الرتيب قبل أن يأتي دوري.

ولكن، صدقيني ، لقد وجدت نفسي على يد الجلاد، اكتشفت فجأة وأنا أصلى نار العذاب انني موجود ، لاني أتألم من اجل الاخرين التائهين في الممرات ، الخائضين معاركهم اليومية ، دون ان يفطنوا لساحة المعركة الكبرى، أتألم من أجل الخائفين أنفسهم بدافع الطمع أو بـــدافع الجبن ، أو بدافع اليأس ، انني موجود لاني أتعذب من اجل من يعذبني ، وهذا منتهى الشعور بالوجود ، والايمان بالوجود .

وعند الاستنطاق ، اهتديت الى وجودي ، دلني عليه ضابط المباحث الذي خضت من اجله معركـــة سليمـة فأرغم على ادانتي ، دلني على وجودي عندما سألني :

ــ ما هي خطتكم لازالة الوضع الراهن ؟

ــ ليست لنا أية خطة لازالة شيء وهمي .

ــ أتنكر أن لدينا مقدسات قائمة ؟

ــ لا أنكر حرية الاعتقاد ، بشرط ألا يخرج عن نطاق الوهم .

ــ ان ما تحاربون ، ليس وهما . انه واقع ، يشعرك بوجوده كل لحظة .

ــ ربما ، ولكنه وجود نسبي ، وقتي لا يعمر .

ــ أخطأت ، لقد عاش قرونا ، أما المخلوقات المخربة، فلطالما عرف كيف يبيدها .

ــ شكرا ، لقد جعلتني أومن بوجودي .

ــ بل بوجود ما تحارب .

ــ ان ما ظهر مرارا في حياته من مخلوقات مخربة ظن انه يبيدها ، هي انا ، هي وجـــودي وهذا دليـــل ديمومتي عبر الاجيال ، اما محاربته لي ــ فدليل قابليته الشديدة للاضمحلال ، وواقعه الوهمي ــ وهـــذه هي الضمانة الاكيدة لزواله القريب ، لان من طبيعة الامـور أن يتبخر غير الكائن عندما يتأكد وجود الموجود، وسيقع هذا لا محالة .

ــ أتدري انك بهذا تهدد الوضع ؟

ــ بل أزيل الغشاوة ، وهنـــا أمر بسحبي الـــى الزنزانة فتقدمت الحارس ، وانا جذل باكتشافي الجديد، اكتشافي لوجودي وديمومتي . وازالتي للستر الذي كان يخفي نفسية ضابط المباحث الحقيقية . انه لم يـــأمر بسحبي الى الزنزانة، الا عندما عجز عن اخفاء ما استطعت تعريته ، فآثر الانسحاب من الاستنطاق المتبادل.

وهكذا عدت الى محجزي الضيق الرطب ، وقـــد اكتسبت أول سهم من أسهم الاستمرار نتيجة الاكتشاف الجديد الذي حمل قلبي قبسا أضاء تجوفاته وحناياه ، وأمتعني طيلة الليالي التي قضيتها في انتظار المحاكمـة، بهياكله وصوامعه ومحاريبه الصقيعية ، وسواقيه المملوءة بدوب الجليد المتداعي تحت حرارة الشعـــور بالوجود ، والاستمرار .

اما ضابط المباحث، الذي يفهم من الكلمات أكثر مما تحمل ، فقد صار من ذلك اليوم يلقي علي اسئلة واضحة ومحدودة ، ويطلب مني أن أجيب بوضوح ، وحســـب المفهوم السطحي للالفاظ . وهكذا ، لم يستطع ان يسجل في محضره ما يثبت التهمة ، لانه هو نفسه لا يستسيغ

مؤلفات سيمون دوبوفوار

* * *

	ق.ل
* المثقفون (جزءان)	١٤٠٠
* مغامرات الانسان	١٥٠
* الوجودية وحكمة الشعوب	١٧٥
* نحو اخلاق وجودية	٢٢٥

ترجمة جورج طرابيشي

* بريجيت باردو وآفة لوليتا ١٥٠

منشورات دار الاداب

ما القي اليه من تعاليم . فهو يؤمن بحتمية ارتفاع الوهم الذي لا بد أن يترك مكانه للمعقول والصائب والموجود . ولكني لم استطع ان اعرف لماذا يصر على ان يلف به حياته ، ويدافع عنه ، ويهرب من ان يعترف بمعتقداته الحقيقية ، وليدة وجوده الحق ، كما يتهرب الاب الخسيس من ابنه غير الشرعي . الا أني اكتشفت هويته في اخر يوم لي بمركز الشرطة ، حيث زارني قبل توجيهي للمحكمة وهمس :

ـ ها أنتذا ستقدم للمحكمة دون ثبوت التهمة.

ـ ولكن الحكم مقرر قبل تحقيقك .

ـ أتهينني رغم تسامحي ؟

ـ ما قصدت اهانتك ، لكني ابين ان حجزي مع زملائي لم يكن نتيجة أي بحث قمتم به ، والا لكانت لديكم ادلة الادانة قبل الحجز.

ـ ان وجود أمثالي ، وغفرانهم لامثالك أهم ما ترك صحيفتك بيضاء .

ـ ولهذا السبب أيضا ألقي علي القبض .

ـ ماذا تعني ؟ أتتهمني بالخيانة ؟!

ـ لحد الساعة ، لم اقل ان التعاون مع الحكم خيانة.

فاستشاط غضبا ومرق من امامي مدمدما :

ـ حقا ... لم يزد الشر على ان انقسم شرين !

يا له من رجل عجيب يفهم من كلماتي اكثر من محتواها اللفظي ، فيتهم نفسه بالخيانة ، في الوقت الذي يمن على غفرانه المزعوم ، ووجود امثاله في التحقيق . فهل بيننا ثأر قديم كان يعكس ان يدفعه للانتقام ؟ ثم ما هو الشر الذي انقسم شرين ؟ الا يعني به انتفاضة الطلائع ؟. ولم يختف الضابط حتى اقترب مني السجان قائلا :

ـ الم ينته بعد من تحقيقه ؟

ـ بلى ، لقد جاء يودعني ، يا له من رجل غريب ، يناقض مقوله معتقده !

ـ لا تثق ، انه من قدماء متاجري الوطنية في عهد الاستعمار الفرنسي ، وفي عهد الاستعمار الـ ... ولم يتم كلامه حتى نودى من بعيد فهرول مسرعا ..

لقد كانت هذه اول مرة يصارحني السجان برأيه ، ويواجهني بحقيقته ، ويكشف لي عن هوية ضابط المباحث، الوطني التائب ... الذي يعرف مصير سيده ، ويأبى ان يتحقق هذا المصير على يد « الشر الذي انقسم شرين » .

فالمشكلة اذن ، يا عزيزتي بيننا وبين الذين يدعمون الوضع ـ عنادا ومكابرة لا يتعلق بصلاحيته او فساده ، فقد تعدى طور الاجماع على ضرورة التغيير ، ودق اخر مسمار في النعش .. بقي الخلاف حول من سيواريه ..! ولهذا السبب دبرت المؤامراة ضدنا ، وازحنا من المقبرة اشفاقا من مصير بعض المصالح المكتسبة من ظل الاقطاع اذا ما اتيحت لنا فرصة التسيير .

وهم رغم هذا ينوون الرجوع الى الاخلاص بعد حين، اي بعد خلو الجو ، وكانما هذه الشطحات الالتوائية وهذه الميكيافلية الغرة لن ترتسم في ذهن الطبقة الواعية لمصيرها وهدفها وطريقتها ... لقد نسفت هذه الطبقة قنطرة الرجعة خلفهم ، ولم يبق لهم الا ان يسيروا في طريقهم ويوصلوا معركتهم ؛ فهم ملاقو مصيرهم ولو في اسوأ الظروف .

كاني بعينيك ترتسم فيهما علامات الدهشة والحيرة لما لاحظته من اقبال عدد مهم من الرعاع ، على المنظمة المختلفة، لتدعيم ما زعزعه وعينا ووعي كل المؤمنين بضرورة التحكم في المصير ، وتوجيه القدر .. لا تجزعي . فما كان العجزة والشيوخ والاميون فكريا ، والنفعيون والحاقدون البسطاء ، ومرتزقة الوظيف ليفيدوا اي جانب ، ولطالما اعتمد عليهم الدخيل اثناء مقاومتنا فكانت اساءتهم له اكثر مما يؤدون من خدمات ، وانت تذكرين أيام غصت عاصمة الثورة « البيضاء » باعراب اتى بهم لتشديد مراقبة المقاومين ، ولكنهم لم يكونوا ليحسنوا حتى الوقوف ... فثقي انه انما يجد الجد ، وتتخلص الطلائع من التردد ، فلن تري اثرا لهذه الطغمة الحربائية التي لم تبرهن الا على عدم صلاحيتها . فديدنها دائما ان تقعد طاعمة كاسية ، وتتجرد من كل قيمة انسانية ان هي جاعت او عطشت . ولقد كان العميل ذكيا عندما لم يستخدمهم الا حينما اجاعهم ، وكأني به يعود اخيرا الى حكم العرب وامثالها ، يستلهمها خططه ولكنه اغفل انهم لا يصلحون الا لتمثيل هزليات العدالة ، وعداها فهم خيول قصب ربما نفعت للتفكهة ، ومجاراة جموح الاخيلة وارضاء بلاهة الاطفال ، اذ لم نشهد دولة قط ، قامت على كواهل طائفة لا تجمعها رابطة مبدأ او وشيجة عقيدة او حرارة عاطفة ، ولسوف يكتشف نفسه وحيدا وقتما يفكر الاخوان فيما اتهمنا به ، وليس ببعيد ان يطمع العبد في الذراع بعدما يطعم الكراع ، وهذا ابسط تقدير .

والان ، ماذا تريدين يا عزيزتي ، بعد كل ما ذكرت ؟ ربما لا زلت تستزيدينني لغوا وهذرا . علك تكتشفين الهوة التي تردي فيها زميل كان متزنا ، او لعلي نغصت ساعتك ، فوددت لو تحسبت وامسكت ، حفاظا عليك من العدوى ... على كل حال ، ساكتفي الليلة بهذا ، لاطباق الظلام ، وحينونة ارغامي من طرف السجان على النوم ، بعد ان بحت لك ببعض ما لم افصح به لاحد ، حتى لنفسي. فشكرا ، لانك ساعدتني على ان اعبر لنفسي عن بعض نفسي ، وساتابع ثرثرتي غدا ، لانها هي العمل الوحيد المسموح لي به ، بشرط ان احتفظ بها لنفسي ولهذا استصبرك على تحملها ـ اذا ما قدر ان تصلك ـ بعدما احاول غدا ، اكتناه ذهني واعتصاره علني اجد فيه من حلب .

« الساعة الرابعة ليلا »

اكتب اليك يا اقرب مخلوق الى قلبي وفكري ، بعد ان ايقظني كابوس مرعب . رأيتك فيه اسيرة اخطبوط هائل له ثلاثة رؤوس ، وانت تصارعينه يائسة خائرة مختنقة ، وبيني وبينك هوة عميقة مماوءة لهبا ، تمنعني مشاركتك صراعك ، ولو انني كنت معتقدا بلا جدوى مساعدتي . وبعد حين رأيت نفسي ارتمي في الهوة فاذا بلهبها بارد ، واذا بالطرف الاخر من الهوة مدرج ؛ فاصلك دون معاناة واستطيع بعد جهد قطع الرؤوس الثلاثة ، ولكني لم اشعر الا ورأس رابع اضخم واعنف له وجه بشع مرعب ، فيه ملامح من زوجك ، يمسك عنقي بكلابة فمه . فيسري في سائر اوصالي زعاف السم ، ويضيق صدري ويحرج كأنما اصعد في السماء ، وتتفكك اعضائي واوشك ان اسلم الروح ، لولا استيقاظي ، وتخلصي من النوم ، لاستسلم لتيار جارف من التأملات والاخيلة ، جرتني ، اليها محاولة تفسير هذا الحلم العجيب ، وكأنما عقلي الباطن لم يرقه ان انسى واقعي ، واكف عن اجترار الم وطني اثناء النوم ، فحاول تذكيري رامزا للخيانة التي

اطاحت بي الى الصحراء ، وبالراس الرابـــع ذي الشبه الكبير بزوجك الذي اغتصبك من ذويك ، مذ كنت فـــي الثانية عشرة من عمرك . واكتشفت اذ وعيت انـك زوجة مخبر ، طالما تابع المخلصين واسترق اخبارهم ، ولكنـــك وجدت نفسك مرتبطة ببيت تدفئه انفاس مولـــود بريء عزيز لديك ، وان كان متأصلا من شجرة زقوم . منضافة لانفاس والدة تحاول ان تكـــون سعيدة صابـــرة ... « متطلعة » الى السماء ، الى كل عزيز مفقود وايمـــان عجائزي لا يسأل ولا يتساءل ، لا يفهم ويفر من ان يفهم رغم ان الفهم عزيز غير مدرك ، والوضوح ناء غير موصول .

هذه الوالدة التي ما ان اوصد دونها رتاج الزنزانـة الاجتماعية حتى اخذت حلقات المحجز الروحي في التفكك والتفزر ، فقدت اول الامر عزيزها الذي طالما تطاعت اليـه في السماء ... وحاولت ثانيا اغتيال الوهم الذي هـــو الفرق الوحيد بينها وبين انسان اخر طالما تمنت ــ كمـــا كان يتمنى ــ ان ينصهر وجودها في وجوده ناسية ان هذا الفرق لا يمكن اغتياله حقيقة ، لانه بمثابة هوة سحيقـــة تصل قمتين متوازيتين ، يكسوهما الزمهرير ، واحيانـــا تلفحهما الاشعة ، وتحل بهما انواء الفصول دون ان تنـال من شموخهما وتفردها . وفوق اعلى قمة كل منهما تحملق عين حادة غريبة فيها من الاصرار والتحدي والتحرر وكل محاولة لاغتيال هذه الهوة ، بمثابة هـــد لاحدى القمتين ، ودحرجة لها في القرار الذي لا قعر له ، بغية ملئه وتكوين قمة واحدة اكبر ...

لا تحاولي ملء الفراغ الذي بين القمتين ، بل اتركيه، اتركيه بكل ما يلفه من ضباب وصقيع وتجمد ، وما يميزه من شساعة زمانية ، ولا محدودية مكانية ، اتركيه فان يمتلىء ولن تزيد اي قمة في علو الاخرى ، لان قعر الهوة موجود، وابقي قمة متفردة بجانبي ، واستشعري حـلاوة التفـــرد والتحرر ، فهما تعزيتنا في هذا العالم الذي حرمنا فيه من الحرية حتى في ان نموت .

انك يابئيستي الصغيرة ، تعيشين تجربـــة مـــرة وفريدة نادرا ما عيشت . لقد بدأت تشعرين بحريتـــك وتفردك ، في الوقت الذي احاطت بك السلسة الاجتماعية، بل اثناء ضيقها وتقلص حلقاتها حولك بالضبط ، ولهـــذا ارثي لك ، واتمنى ان تنجحي في التوفيق بين نار الحرية في روحك وفحم الاستعباد في جسمك وبيتك ، دون ان تستحيلي جمرة ملتهبة ترمد بعد حين ، لتسفي ذراتها ريح الهوة الفاصلة ، على نتوء القمة الثانية التي لم تعش هـــذه التجربة الميئوس من سلامتها .

ولكن كيف يمكن ــ ان نعيش بدون قيود ؟ اليس في التزام الحرية قيد اخر حتم كسره ؟ انكون احرارا عندمـــا نتحرر ؟ اليس في التحرر من الحرية استعباد ؟ فكيـــف نتحرر من الحرية والعبودية في آن واحـــد ؟... ارى ــ آسفا ــ اننا ندور في حلقة مفرغة .. او اننـــا نعيش دوامة مغثية من جبر مركـــز ذي وجهين احدهما حرية ، والاخر استعباد ، ولا يمكن ان تكون الحرية علـــى حسن وقعها في النفس ، الا عبودية فوضوية ... ، او مهذبة ، تسهل استغلال الفرد واحتلابه دون ثورة او تمرد ، كمـــا ان كثيرا من العبوديات لا تعدو ان تكون حريات مقيـــدة ومسلسلة .

فيا عزيزتي ، ما الحرية وما العبودية ؟ وكيف نكـــون احرارا اذا لم نكن عبيدا ؟ بل كيف نتحرر مـــن الحريـــة والعبودية في آن واحد ؟ ومتى يكفون عـــن تسميتنا احرارا لعدم استغنائهم عنا ؟

لقد فجعتك مرارا بعدم التزامي باية اصول عقائدية ، وباضطرابي وقلقي بين الميتافزقيات البشرية وبنبذي لهـا كل آن ، ولعلك تحاولين اقناعي بانه ليس في عدم تقيدي بها اي تحرر ! او تنتظرين مني ان انقلب شاؤول للقـــرن العشرين ادعو اليوم الى ما كنت احاربه بالامس ، ولكنـــي لا ارغب في هذا الموقف ، لاني اربأ بنفسي ان يحكم علـــي غيري بشيء اريد ان احكم به على نفسي في الوقت الـــذي اراه مناسبا كي اخلص الى ان أتحرر من الرق والحرية معا. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي اراها الان ــ علـــى الاقـــل لتحقيق الآمال وللتخلص من هواجس هذه اللحظات المدلهمة من الليل التي استسلم فيها لتخدير النوم كـــل البشر الا مخلوق منهك القوى ، حاد الطبع ، منعـــه النوم اضطراب مرير وازمات ربو مقيت لم ينفع فيها جفاف طبيعة ، ولـــم تجتثها حرارة شمس ، ولم تهدئها حقن طبيب ، او تعاويذ فقيه ، ولم تبلغ به هذه الازمات منتهاها فيقضى ، ولـــم ينتظم نفسه فيرتاح .

فيا له من مرض منافق ، يحرص على ان ينسجم مع بيئة هذا البشر ويتخلق باخلاق اهلها ويا لي مـــن شقي ، لا يخفف من جفاف دنياه الا طيف طفل وديـــع ، وخيال ام رؤوف ، ورفيقة قصية وفية تشاركـــه آلامه واحزانـــه وافكاره ... فهل يا ترى يدوم لي هذا الثالوث الطيب ؟

انني كلما فكرت هكذا اشعر بحسرة مريرة وميـــل شديد الى ان اعطي لنفسي حرية كاملة لابكي ، وابكي حتى اخمد نار القوة المندلعة في اعماقي ، واشعر بذلك الاستسلام الخنوع الذي يشعر به كل بكاء خضوع راض نفسه علـــى قبول الحياة واستغلالها ، وانسى اني عضو في مجتمـــع ثلثه اعمى ، وثلثه فاجر وثلثه الباقي طيب ابلـــه ، ينشد الاستقامة ولا يجد سبيلا قويما يسترشد به ، فظل يتعثر بالصخور والحجارة والحفر والاشواك محاولا شق طريـــق جديد دون ان يفلح الا في ان يخسر صحته ووقته ليكسب كلمة باردة من بعض الساخرين لا تعدو :

« مسكين ... يا له من طيب .. مستقيم ! »

انا يا عزيزتي اعيش الان حياة اقرب الى هذا الليل المدلهم ، الذي تطغى سوداويته الكالحة على هذا الكـــون الاعجم الصامت ، الا من نقيق مزعج لضفادع ثرثارة ، الفت عفن المستنقعات ، وعواء ملحاح لكلاب عقورة تستنبحهـــا خيالات ظلامية ، واشباح وهمية ، ورعب مستمر مـــن انسان يكره الكلاب ، ويحتقر العفن ، ويعقم المستنقعات ، ولكني لا التمس طريقي في هذه الحياة بهدوء ولا اسايرها مراوغا متحايلا ملاينا وانما كلمـــا ضاق نفسي ، وتضاءل جهدي ، وضاعت المعالم من باصرتي ، واخـــذت الاشواك والحفر والاحجار والارض شكلا واحدا اسود ، لا يهـــدي ولا يساعد على الاهتداء ، زحفت قدمي الـى الامام بعنف وقسوة واصرار ، غير آبهة بالعوائق والحواجز والضفادع والمستنقعات تدفعها الى الامام لا مبالاة عنيفـــة واستهزاء بالوجود منكر ، وسخرية بالاشلاء والجماجم مريرة ، وعلم منها يقين ، بعقم الحياة ، وتفاهة الامـــال ، ولا جدوى التهافت على تمطيط الايام والاعوام ، وادخار الطاقـــات الحيوية لغايات غامضة ، كثيرا ما نستبين خطلها او نكتشف عنصر التفكه والتفاهة فيها .

قد تدميني هذه الطريقة في عبور درب الحياة ، وقد ترضني وتشل بعضي . ولكنها لا تؤلمني ، لاني اشعر بالم اكبر مما تسببه طفيليات الطريق . اتدرين مصدر هـــذا

الالم الاكبر ؟ انه وجودي في هذا العالم الذي احاول ان ابصقه فلا استطيع ، واحاول أن اقترب من شفتيه ليبصقني ، ولكنه كلما احس بي ادغدغهما ابتلعني ، فلم اشعر الا وانا في جوفه النتن الابخر المغثي ، انتظر دوري للخروج من القناة الطبيعية ، كما يخرج البشر القذر .

فانظري كيف وددت ان ابصق من فم الوجود ، رغم ما في البصاق من حقارة ، ولكن سخرية الجبر اخترعت لنا منفذا اخر ، اشد حقارة ، وادهى مقتا ، فهل يا ترى يقبل مثلنا هذا المصير ؟

هناك افراد نجحوا في محاولتهم ليبصقهم الوجود ، ولكنهم اتهموا بالجبن والخور ، فهل يستطيع احد ان يبين لي ، ما في انتظار منحة الخروج من المنفذ الطبيعي ، الاكثر حقارة ــ من شجاعة ، وما فيه من بطولة ؟

انا لا ادافع عن المبصوقين ، ولكني أود أن أبين ان للانسان مهمة وحيدة في هذا العالم ، هي ايجاد منفذ شريف ينقذ به ما تبقى لديه من وهم كرامة وإباء . وما دمنا لم نهتد الى هذا المنفذ ، او لم نستطع استحداثه ، فليس لنا الا ان ننتظر المنحة العمومية ، أو نحاول الحصول على منحة خاصة .. هي البصاق !

فماذا تختارين ؟

أعتقد جازما انك من ذلك النوع التائه الحائر ، الذي لا زال مؤمنا ــ عن خطأ ــ بامكانية ايجاد منفذ شريف ، وكأني بك تجدينه وانت جالسة ترقبين افول الشمس وانسحابها الهادىء من يومك ، وتحدقين في التجاعيد المتفانية ، والتجاويف المتهالكة ، والخطوط المتلاطمة ، التي تحدثها امواج اللجي في اقصى الافق حيث تسكب أشعة الغروب عليها لونا افتدائيا دمويا قانيا .

لا تتسرعي ايتها المتفائلة ،ولا يأخذ بك الفرح كل مأخذ ، فقد مضى زمن الجهاد المقدس الذي يفتح للانسحاب الشريف من الوجود الف باب ، ولم نبق الا في زمن اختلطت فيه القيم ، واشتبهت المثل ، ولم يبق كل موقنا تمام اليقين بما يحمل من عقائد .. فيا تعسا لنا ، زمن العقائد الواضحة مضى ، اما زمن الجهاد المقدس فليست له رجعة ، ولن تمر برهة حتى يفنى زمن المنح الخاصة ، فهاتي يدك ، ولا تجزعي .

لقد حاولت أن اتخذ موقفا ، مثل الاخرين ، الاملين ، المنتظرين ... كيلا امكث متخبطا ميمنة ويسارا ، وعلوا وسافلة ، ولاتمتع على الاقل ، بسرحة حالمة مجنحة . تكفيني شر رد الفعل العنيف ، والمحاولات الملحاحة للتخلص الى الطريقة المثلى ، او المبدأ الافضل ، ولكن سكوني العضوي هنا ، حال دون أن يسكن فكري او روحي .. او باطني .. او بتعبير موضوعي : ذلك « اللامعروف » الذي يجعلني اتجاوز عالم الشعور الحسي ، ولطالما شعرت باني ذبيح متمرد لم يعترف بواقعه ،فأخذ يتخبط ، وينطح الجدران والحجارة ويركل الفراغ ، متوهما التخلص بهذه الحركات المتنطعة مما حل به . او ــ على الاقل ــ اقصاء فنائه وتأخيره لاجل ، ولكنه سرعان ما يسقط جثة هامدة ، مختزلا اخر لحظاته ، مساعدا بحركاته وتمرده على تعجيل نهايته ، وكأنه باوضاعه المختلفة التي يجرب اثناء الاحتضار، وقيامه وقعوده واضطرابه يحاول أن يكتشف الوضع الذي يحل المشكلة ، وهذا على الاقل ، اشرف ... بل اقوم موقف ــ مع اعتبار « بل » للاضراب التام ــ يتخذه الانسان في حياته . اذ الاعوجاج والالتواء ، والتجارب المتضادة تمثل طرفا في معادلة الاستقامة .

اما الذبيح الذي يستسلم ويبسط خده ارضا ، في سفرة حالمة يسميها حياة « واقعية » ، جدية ، او سعيا هادفا منطقيا ــ فهو اما ظن هدوءه خير سبل النجاة ، او هدف الى التمتع باخر ما تستطيع الحياة المادية اسداءه ، وهو في كلتا الحالين قد اعتبط بتحديد موقفه ، وتطبيق طريقته ، دون تقدير للنتائج ، فاستسلم للامل .. والانتظار ... والجمود ، اما النهاية ، فحتما لن تكون اكثر من تجمد .. وتحجر .. وفوات تجربة فريدة لن تتاح له بعد الموت .. اي بعد تحديد الموقف ، هذه التجربة هي معيشة لحظات مهمة من الاضطراب المتفحص ، والركل المتبصر ، والتخبط المنقب .

فيا ذبيحتي الساذجة ، اعوجي يمينا وسافلا ، ويسارا وعلوا ، في متضاد الجهات ، ومضطرب الاوضاع ، ومتمرد الحركات ، ومتنافر الاهداف .. اضطربي ، اضطربي ، عساك تهتدين الى اله حق يخلصك من عذابك ويفيق البشرية من غفوتها ، او تعجلين بنهايتك الحالية للنفاذ الى الطور الاخر ، طور التفتت المادي الصرف او اللاوعي البليد الممل .

اما الاستسلام والجمود .. ارتقابا للالهام ، او تلهيا عن الالم ، فلا يجدي الا في ان يزيد من عمر التحجر الذي سيحل بك لا محالة ، وستملين منه ، وتندمين على انك ادخلت نفسك في عداد الموتى قبل الاجل . وعلى انك لم تعيشي ايامك الاخيرة في اضطراب حي متطور .. متغير .. يشعرك ، على الاقل ، انك تستطيعين الحركة وهذه ابسط غنيمة ..

لقد بحثت عن الحل الامثل .. وبحث غيري .. كثيرون ، ولكننا لم نتعد الرسام الذي ظل يعالج الاصباغ خلطا ودلكا ، والريشة سحبا .. وتلطيخا .. على مختلف الاوضاع ، وفي متنافر الجهات . علّه يعبر عما يداعب اقصى آفاقه فلا ينتهي الا الى الخذلان .. والفشل .. او الى أي نوع من الرموز المشكلة يسعى ليسميها ويعرضها على انه قد هدف الكنه .. كاتما نفسه فشله وحيرته في تشخيص مطعن سعيه ، اهو قلة الالوان او ضعف في الفكر ، ام عدم اكتمال في التجربة ووضوح في الهدف ، ام لقصور طبيعي مزمن ؟. فيكتفي بما نال على انه قد اغيا .

كلنا رسامون ، الا ان الذين لا يضطربون ، بمثابة الرسام الذي ايقن بالفشل قبل حاوله ، او الذي اكتفى بما نتج عن محاولاته من اشكال ، اتخذها لوحة ... او مبدأ ... او هدفا ... فحكم على نفسه بالفناء . او كالكيميائي الذي ارهقه خلط المعادن ، واعياه تحليل القمر ، ورجمه بالعقرب ... ومزجه بزحل ، ليكتشف سر الشمس واكسير التكامل ، فاكتفى بأن اعان انتصاره ، بان اخذ يزيد في وزن الذهب من عيار اغلى ، باحالته ذهبا من عيار اخس ، واتخذ هذه الطريقة مبدأ حدد به موقفه ... واعدم نفسه . الا اننا ــ مع الاسف ــ او لحسن الحظ ــ لست ادري ــ ليس لدينا ذهب نستطيع ان نزيد وزنه بالحط من قيمته . وحتى اذا ما وجد ، فلا نستطيع التعامي ولا نطيق الكف عن الاستقراء ، والخلط ، وتجربة التحليل ، والمزج ، والرجم والتنقية ، والتلطيف ، علنا نخلص الى طريقة مثلى ، نصنع بها ذهبا خالصا ، وليد فكرنا واجتهادنا ومثابرتنا . الا اننا بحاجة اولا الى توعية تزيل اثر النوم العميق والتخدير الشامل ، للذين هيمنا علينا ، وبلدا حواسنا ، نوعية توقظ احساسنا ، وتشعرنا بالالم ، والوجود ، والتطلع الى اعلى ، وتكسبنا غرورا ،

واندفاعا ، وتهورا ، نقضي بها على الاعتلاث والاكتفائية ، ونكشف بها ما احتجب عن اجدادنا العمهين الضائعين ، ونغتهب بها كهوف الحياة وممارق الحقيقة ، ومزالق الضلال، ونجعل بها كل فرد نتيجة شعور حاد بالمسؤولية ـ مساهما رئيسيا في جهد عام لاكتشاف الطريق .

وهذا يؤدي حتما الى ضرورة القضاء على احتكار كفاءة المسؤولية ، والتخلص من قوقعة اللاوعي التي لفتنا بها طبقة التوهم ان في ترقيتنا مدعاة تعذيبنا ، لانها تشعرنا بمقدار التخلف الذي نعيشه ، ولا نستطيع كبح اطماعنا الجامحة ، وليدة هذا الشعور والى اتخاذ سبورة مشتركة نسجل فيها تجاربنا الفردية ، وتحاليلنا الشخصية المنبعثة من واقعنا المعاش ، كي يتحقق التكامل ، ونستخلص قاعدة كلية للوصول الى مبدأ افضل .

وما دامت هذه السبورة محجوزة من طرف محتكري المسؤولية ، فان الحصول عليها يقتضي اولا ، وبالذات ، القضاء على هؤلاء المحتكرين . ولا بد لهذه الغاية ، من قوة نظامية واعية تعتبر اول خطوة في معركة السبورة .

الا انني ـ لسوء حظي ـ ازحت من الميدان قبل الالتحام ، والقي بي في هذا السجن القصي كلا اشل ، اترقب يوم الفرحة المسعورة ، يوم التلغيم والزلزلة اذ يصدر امثالي آشتاتا من لحودهم ، وعلى وجوههم الف تعبير ، والف نشوة ، والف عزم على تأكيد الوجود .

والي ذلك الحين ، انا هنا انتظر ، واجفا ، راجفا ، مشفقا ، ذهولا ، استفنى تارة ... واستحيي اخرى ، كلما تأرجح فكري بين اليأس والرجاء او تداولته خواطر السخط والرضاء او انتابته لحظات اشراق معشية ، او ازمات اظلام مغشية ، او هاجت ذاكرتي عواصف هوج اجتثت شجرة النفاق التي كانت تظلني ، فاجدني في سموم وحموم ، لا بارد ولا كريم ، عاريا الا من عاطفة متأججة ، هي المكسب الوحيد الذي استخلصته من حياتي المتأرجحة التي اشرفت على توديع العقد الثالث .

هذه العاطفة هي شعور الالفة والمحبة الذي ظل يهيمن على قلبي ، ويلطف من حمارة القيظ التي يصلاها في جحيم هذه التجربة الحتمية .

بيد اني كلما عن لي طيف حبك ، عاودني الالم ، واعتصرني الندم ، وطغت على نفسي موجة من التبكيت واللوم ، واستشعرت نوعا من الاحتقار لكياني ، والسخرية بشجاعتي ، سيما وقد تأكدت ان جبني وترددي وانانيتي اهم اسباب انفصامنا وتباعدنا .

اما انت ايتها الغالية فلا زلت على مر الايام، والاعوام، تعظمين ، لانك استطعت التغلب على نفسك ، وفرض ارادتك ، عندما اعلنت عن حبك لي ، وعزمك على التضحية في سبيلي والتكفير حتى عما الصق بك تلفيقا وبهتانا ... لقد اثبت بموقفك ـ اذ ذاك ـ ذاتك ووجودك . ولكني انا المتضائل المتصاغر الاناني ، الجبان ، خنتك ، وتركت يدك ممدودة في الفراغ ، فألقيت نفسك محاصرة بما نسج حولها من تقاليد واعراف . وواصلت الطريق الذي رسم اهلك ، في تطاوع بئيس واستسلام متبالد ، وخطو متخاذل بعد ان ابكمت يسارك ،ووايت حبك الذي نما ، وشب بين النخيل ، وعلى ايقاع امواج الاصيل ، وتحت السماء الزرقاء ، حبك الذي غذته الشمس الذهبية فعاش قويا ، واذكته الغربة فالتهبت قويا ، ومنعته الانانية فمات الى الابد قويا ، واودعته النخيل وسقيته الثلج المذاب فوق شوامخ القمم .

اما هذا المخلوق التعس فقد اخجله اخلاصك ، وخؤونته ، وحار بحبك ، ايمسكه على هون ، ام يدسه في التراب . وهو في كلا الحالين طالما ارقته هواجس الاحلام، واسهرته نواعق الظنون ، وبرحت به طوارق الشكوك ، ومزقت قلبه ـ شر ممزق ـ متاهات ومفازات ، وشواسع رمال وآكام ، خب فيها مستوصلا تلسعه الاشعة ، ويكويه اللفح ويحرقه اللهب ، ويخدعه السراب ، ثم لا يلبث ان يتخلج باقدام متثاقلة تغوص في الرمال ، فتبذل للتخلص منها الف جهد ، والف قوة ، وتخسر نتيجة هذه المجاهدة ضعف ما تفقد في عديد الخطوات ، ولكنه لا يبالي ، لان التراب لم يعد يغويه ، ولان الطريق لم تعد تمله ، فهو يهرول ، اشبه بالحبو . كلما حدس انه سيسقط ، اكمل خطوة بركبتيه ، وبنانه ، مصرا على المواصلة ، وعلى بذل ما تبقى لديه من رصيد تحمل ، وعلى تجاهل ما به من اوار ، مفضلا ان يظل ساعيا حتى اخر لحظة له في الحياة .

لطالما ـ حبا هذا البئيس ـ عاله يقطع الطريق ، او زحف ساحبا مؤخره في قيظ الصحراء ورمضاء الهجيرة مستبلا اوارا ، ومستروقا لسانا . والوجه منه اغبر اجعد ، شاحب جاف ، لم يبق عليه الا شعيرات لفحها الحر ، وشابتها خطوط يابسة كانت مجاري عرق ونضبت ، وهو في دؤوبه لم يبق له هدف ، ولا يؤمل ان يحقق غاية ، وانما يسير بحكم صارم اصدره على نفسه ، ولا بد ان ينفذه ... فهو يخب ... ويتخلج ويزحف ... مادا يده الى الفراغ ، والى العدم ، في صمت رهيب واصرار عنيد ، وآلية عنيفة .

وكلما احس الوهن واستحالت عليه المواصلة ... آب الى قلبه ، يفتحه باضطراب شديد ، وحرص اشد .. يفتحه ويتزود منه بقطر ندى ، من ذلك الفيض السحري الذي اختزنه في ايام الربيع ... ربيع حبك يا الهته العجيبة فلم يشعر الا وقد انتقل الى واد خصيب ، تنبجس من جنباته عين ثرة مدرارة ، تتخللها مجاري ماء رقراق عذب زلال ، يكرع منه ملء الحياة ، ويمرع بين اعشابه بلهف وتهالك ، ويشتم عطر زهره بشبق حاد اعجم . ويغمس وجهه في المياه المنسابة الفياضة آنا ، وبين الاعشاب المخملية طورا ، كأنما تمتعه سفعات مويجات الساقية ورشقات اطراف الاعشاب الناميه ، وتزيده شعورا بالسعادة .. والمحبة والصفاء . فلا يلبث ان يعاوده الامل ويصبحه الاشراق وتتحلل ركبتاه من الوهن ، ويظهر امام باصرتيه افق وسيع من ماء ونعيم ، وخضرة ونسيم ، وظلال وارفة تلفها الشفافية ، وتبعدها جحافل اللفح واللهب ، فيخب ... ويهرول ، ثم يتخلج ... ويحبو ... الى ان يقضي » .

الدار البيضاء ـ المغرب — ع. مطيع

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا

احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .